ثم ان جانباً كبيراً من العمارة الباقية لروسيا محصور في البحر الاسود لا يستطيع الخروج منهُ وتقريعهُ ٩٣٠٠٠ طن فالباقي لروسيا مما تستطيع ان تلقي بهِ اعداءها في عرض البحار لا يزيد على ١٣١ ٢٣٧ طن . واذا استولت اليابان على السفن الروسية اللاجئة الى الموانىء الاجنبية زادت عمارتها بارجة وخمسة طرادات ومدفعية وستة من قوارب الطربد فتصير قوة اسطولها ٣٠٠٥٢١ طناً فتفوق ايطاليا وتقارب الولايات المتحدة الاميركية واذا نقاضت غرامة الحرب من روسيا فلا بدَّ لها من ان تبني بوارج ومدرعات فتفوق الولايات المتحدة بل قد تفوق المانيا ايضاً وتصير عمارتها الثالثة في الدنيا

باب التقريظ والانتقاد

اشهر مشاهير الاسلام

في مثل هذا الاوان من السنة الماضية اهدى الينا حضرة المؤرخ المدقق رفيق بك العظم الجزء الثالث من كتابهِ " اشهر مشاهير الاسلام " وكان الكلام فيهِ عن القواد الثلاثة العظام ابي عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص وعمرو بن العاص . واهدى الينا الآن الجزء الرابع وهو يتضمن سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان احد الصحابة ومن اشتهر في دولتهِ

والكتاب ابواب تبحث في نسب عثمان واسلامهِ وصحبتهِ وخلافتهِ وفتوحهِ ومآثرهِ واخلاقهِ وكتبهِ وخطبهِ ومقتلهِ . وبلي هذه الابواب كلام عن عبدالله بن عامر وحبيب بن سلمة الفهري وتاريخهما

وقد ضمنهُ من المباحث السياسية والاجتماعية ما يدلُّ على اصالة رأيهِ وصدق وطنيتهِ ورغبتهِ الشديدة في مصلحة امتهِ وبلادهِ مع الاعتدال التام في ذكر الاسباب كقولهِ في فصل عقدهُ للخلافة والدين

يؤخذ من مجمل ما نقلناهُ بهذا الصدد ان البيعة وان كان يتوقف عقدها على رضى الجمهور الاَّ انها لم تتأسس على قاعدة محض الاختيار اعني اختيار الامة او من ينوب عنها من اهل الحل والعقد ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة الاسلامية اقرب للجمهورية منها للملكية وكذلك لو استمر العهد بالخلافة من واحد الى اخر على شرط تقيد الامير بقانون

الشورى لكان اسلم عاقبة واسد لذرائع الخصام والانقسام كما قال ذلك معاوية بن ابي سفيان لابن حصين حين وفد عليهِ . ولكن لما لم تكن كذلك واخذ اصل البيعة شكلاً بين شكلين شكل الشورى وشكل الاستبداد او شكل الاطلاق والتخصيص تولدت في ثنايا الخلافة جراثيم النزاع حتى افضى الامر بعدهُ الى التغالب والغالب بالضرورة قهّار قلما يراعي امبال الامة وتحري قاعدة الشورى التي نوّه بمحاسنها الشرع فلا جرم ان تستحيل حكومة ذلك مآل رئاستها الى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الاسلام غالب للمسلمين على امرهم كما حصل بعد وكان سبباً عظيماً لكمون الضعف في ثنايا القوة المريعة التي قامت بها دول الاسلام حتى اذا آن اوان الراحة والنزوع الى التمتع بجني الاسلام اخذ ذلك الضعف يظهر في كل جزء من اجزاء الامة وفي كل عضو من اعضائها حاكماً كان او محكوماً حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع : لا وقوف معهُ : من شاهق ذلك المجد القديم والقوة الماضية التي بلغت في عصرها اقصى ما تبلغهُ قوى الدول القائمة في ابان زهوها

ان الدول ما زالت تقوم وتقعد وتضعف وتقوى والامم كذلك . غاية ما في الامر ان الضعف اذا تناهى يغير احياناً شكل الامم كما لو قيل ان الرومان اخلفهم الطليان وان اليونان اخلفهم البزنطيون وان هؤلاء اخلفهم الاروام والاصل في الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمهُ بجديدهِ في شكل آخر ولو مزيجاً واقام لهُ دولة غير الاولى . وهكذا الشأن في كل امم المغرب مع ما لاقتهُ من ضروب الشقاء والاستبداد وما انتابها من القوة والضعف فانها ما زالت تسقط وتقوم وتعالج انواع الارزاء وتحاول بعد الهبوط الى الحضيض العروج الى السماء حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذي يرى الآن وتقمصت في شكل جديد لم ترَ مثلهُ عين الزمان

رب سائل يسأل كيف اذن لم يتلافَ المسلمون امر ذلك الضعف واستمروا منذ اخذوا بالتقهقر في منحدرهم الذي لا نهاية لهُ غير الموت والخذلان مع ما يشاهدونهُ من حال الملل الاخرى التي صار اليها ملك الاسلام . فالجواب عنهُ ان ذلك الضعف الذي اشرنا الى انهُ كمن في ثنايا القوة منذ تأسست دولة المسلمين انما منع المسلمين عن تلافيهِ بل ألجأهم للاعراض عن معالجتهِ امران : الاول : ما قدمناهُ من عدم توفر شروط الشورى والاخيار في البيعة بحيث اخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج اليها من طريق القوة والتغالب فاوجد نزاعاً مستمرًّا من اجلها في الامة افضى الى مصير الامر لِيد الغالب والغالب لا يتقيد بالشورى ولا يجاري رغائب الامة بالضرورة

والامر الثاني اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لاولياء امر الامة

بعد الخلفاء الراشدين للاخذ على ايدي الرعية وافواهها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للامة حياةً دينية لا سبيل معها لنوازع الامة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضيه حالة كل عصر سواءٌ كان في حياة الامم السياسية او حياتها الاجتماعية لا سيما بعد ان قالوا بحرمة الاجتهاد ووقفوا عند حد محدود من الفروع وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن يتمو في جسم الامة نموًّا جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام وتعطي بازمتها الى الامراء والحكام حتى في عصر زال فيه الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للامراء وجوبًا دينيًّا وعرف اكثر عقلاء المسلمين ان الدين لن يكون مانعًا من قيام الدول على قاعدة مراعاة الاصلح وانما هو تأثير النفوس بحكم العادة المألوفة للابناء اخذ باعنة الابناء الى سلوك سبيل الاقتداء

واعلم ان الشارع جوّز الاجتهاد باحكام المعاملات دون العبادات وهي العقائد والاعمال لان الاولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية والثانية تتعلق بمصلحتهم الدينية. والنصوص الدينية لا اجتهاد فيها لانها قطعية واما المعاملات فقد اعتبرها الشارع دنيوية واجاز فيها الاجتهاد تيسيرًا على الامة في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا تتناهى . هذا في المعاملات فما بالك بامور الامة السياسية التي يناط بها قيام الدول لا جرم انها اولى ان تعتبر دنيوية وان تكون لذلك حياة المسلمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا ان الكتاب الكريم امر بالشورى ووعد المؤمنين بالاستخلاف في الارض وان في هذا اشارة الى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شوروية فاستلزم ذلك ان تكون دينية اذ هذه اصول او كليات يتمشى عليها ما يتمشى على كليات الاحكام الاخرى من جواز الاجتهاد في جزئياتها وفروعها لجعلها دائرة مع المصلحة الدنيوية . ومقومات الحكومة كثيرة لا تنحصر في الكليات ولا تختص بزمان او مكان بل هي تابعة للحاجة سائرة مع ترقي الزمان ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لانها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة

لا جرم ان الصحابة عرفوا هذا الاصل فجنح الخلفاء الراشدون منهم الى الشورى في تدبير امور الدولة كما رأيت من سيرة الخليفتين ما فيه الكفاية وعرفوا ان لهم ما وراء ذلك الاصل ان يأخذوا بما هو نافع لهم من مقومات الملك لانهُ منوط بالمصلحة التي يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة الدولة فاخذوا اصول الحكومة الادارية عن الفرس كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الارضين واحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ وغير ذلك مما مر بك ذكرهُ في هذا الكتاب . وفاتهم ان يأخذوا عن الرومان اصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين افراد الامة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التي اوجبها

الكتاب الكريم وانما اذهلهم عن هذا ان ليس لديهم تاريخ في اصول الحكومات يرجعون اليهِ وكانت الحكومات النبابية بعيدة العهد يومئذٍ من مجاوريهم الرومانيين فجأوا الى اناطة كل شؤون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا على وجههِ حتى جاء عصر كان الامام فيهِ هو المتسلط على كل شؤون الدولة تسلطاً ملازماً لتسلطهِ الديني فكما ان لهُ ان ينيب عنهُ اماماً في الصلاة فلهُ ان ينيب عنهُ قاضياً للقضاء وكانت الخلافة لذلك اشبه بالدينية منها بالسياسية وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً ادّى الى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجمود الافكار على مبدإ الخضوع المطلق للامير باعتبار ان الامير رئيس ديني تجب لهُ الطاعة مع التغاضي عما يجب عليهِ في مقابلها من العدل

ان اصطباغ المسلمين في حياتهم السياسية بصبغة الدين حوّل الاحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الامة ومصلحة الشعب الى فرق دينية كانت في الاسلام آفة الدين ومفرق شمل المسلمين . مثالهُ ان الاحزاب السياسية التي قامت في الصدر الاول لمطلق الغرض السياسي او الانتصار لزيد والاخذ بناصر بكر ما لبثت ان انقلبت الى فرق دينية ومشت الى الانحلال في الدين كالخوارج مثلاً فانهم بعد ان كانوا يذهبون الى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدإ التعاون العام في امور الدين والدنيا انقلبوا الى نحل دينية فرقت شمل المسلمين . وكالشيعة فانهم بعد ان كانوا ينتصرون لعليّ رضي الله عنهُ لاعتقاد انهُ اهل للخلافة ويريدونهُ عليها ولو بالقوة انقلبوا ايضاً الى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوباً دينياً وانفردوا بمذاهب خاصة كلها ترمي الى الدين وبالدين . وكان في غضون ذلك ما كان من الفتن التي انهكت قوى المسلمين وصبغت بدمائهم اديم الارض باسم الدين . والدولة الاسلامية واقفة بين كل هذه الفتن والشقاق والتحزب والافتراق في مركز واحد ومتجهة الى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير الاّ بتحولها من الشورى الى الاستبداد مع ان المعهود في الدول التي تنتابها الفتن وتقوم فيها الاحزاب ان يتناب صبغتها التغيير وتتقلب اشكالها بتقلب الزمان وقيام الفتن بين الاحزاب السياسية في كل زمان

هذا الاجمال ينبئك كيف استحكم داء الضعف في الامة الاسلامية مع انهُ عارض قد كان في الامكان تلافيهِ قبل ان يستحيل الى جمود اذهل الامة لهذا العهد عما يحيط بها في هذا الوجود وظهر اثرهُ حتى على اعمال المسلمين واخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم بحيث صاروا لا يقبلون اي جديد الاّ باسم الدين ويرفضون كل امر نافع اذا لم يعرف عن اسلافهم الميتين حتى سبقتهم في مضمار الحياة كل الامم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم اضعف الدول الغربية

وهم يداعبون الخيرية بون مجاراة الامم لمطلق التوهم في ان مجاراة السابقين خروج عن الدين وان الاسلام والعياذ بالله قد حرَّم كل امر نافع على المسلمين الاَّ ما قال بحلهِ شيخ من الشيوخ الماضين . وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها امة في الاولين ولا الاخرين . والله يشهد ورسولهُ والملائكة والعقلاء كافة ان الاسلام بريء مما يزعمون

اصلاح الازهر

الازهر اكبر المدارس واقدمها ولكنهُ دون كثير من المدارس العليا في تفعهِ لطلابهِ وفي انتفاع البلاد منهم لما كان يعتور نظامهُ من الخلل . وقد وُجهت العناية حديثاً الى اصلاح ادارتهِ واصلاح طرق التدريس فيهِ " لتحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول والتحلي بثمرة تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال . وقد قسمت فيهِ العلوم الى مقاصد ووسائل والمقاصد علوم التوحيد والتفسير والحديث والفقه واصولهُ والاخلاق الدينية . والوسائل المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة ومصطلح الحديث وضمَّ اليها الحساب والجبر . وهذه العلوم بقسميها هي التي يُلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها . ثم ان هناك علوماً أُخر تستوجب لحصلها التفضيل على مَن في درجتهِ في التوظف والمرتبات وهي تاريخ الاسلام وصناعة الانشاء ومتن اللغة وآدابها وتقويم البلدان ومبادئ الهندسة "

وقد كان الابتداء بهذا الاصلاح سنة ١٣١٤ فوضعت قوانينهُ وامر الجناب الخديوي بالعمل بها " وصارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ولم يبقَ عليها الاَّ الجد في العمل بهذه القوانين والمحافظة على ان تكون كل اعمالها مطابقة لها ومراقبة تنفيذها على الوجه الاكمل وتمتُّع العلماء والطلاَّب بثمراتها . ولم يكن ذلك بالامر السهل القريب المنال ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتمل في العادة ولكنها المقاصد القوية تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال "

وقد نشر الآن كتاب عن اعمال مجلس ادارة الازهر يتضمَّن البيان السابق ونتيجة العمل بالنظام الجديد والتوسع فيهِ . ومما جاء في هذا الكتاب ويحسن نقلهُ عنهُ تعميماً لفائدتهِ وصف دار الكتب التي انشئت حديثاً في الازهر ووصف اصلاح التعليم . وهاك ما جاء فيهِ عن دار الكتب

" ان المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيهاً قد خصص لمرتبات الامين والمفيِّر والكاتب والخادم (الفراش) ولاربعة من العمال الموقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعاً في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنهُ مبلغ ١٥٠ جنيهاً لشراء كتب جديدة

ولتكميل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد ما يوجد منها بلا جلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانوناً عاماً سار العمل فيها عليهِ الى الآن سيراً حسناً . ولاجل ان يعرف ما هي هذه المكتبة واين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفاً من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليهِ الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضعت في بعض الاروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني ونيط حفظها جميعها باشخاص يقال لهم المغيرون فتصرفوا فيها تصرفاً سيئاً للغاية صحَّ معهُ اطلاق اسم المغيرين عليهم لانهم غيروا وضعها وشتتوا جمعها ومزقوا جلودها واوراقها وتركوا ما لا عناية لهم بهِ منها في التراب يأكلهُ العث ويبليهِ التراب وهذا غير ما تصرفوا فيهِ تصرف الملاَّك وصار بايدي باعة الكتب يباع على نفاستهِ بالثمن البخس ولم ينل المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء وبالجملة فلم يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ما افسدتهُ منها هذه الايدي وتسهيل الانتفاع بها اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فارسل من اخذ المقايسة لاصلاحهِ وانشاء ما يلزم لهُ من الخزائن التي توضع فيها الكتب ثم عرض الامر على الجناب العالي فاقرهُ مستحسناً لهُ وخرج هذا العمل من القوة الى الفعل وتهيأ المكان لما وجد لاجلهِ من وضع الكتب وحفظها فيهِ من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات وشرع عمالها في انفاذ ما عهد اليهم من اول سنة ١٨٩٧ افرنكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهنالك ظهر العجب العجاب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها الى ذلك المكان الجديد فكان يأتي بها اولئك المغيرون محشوة في الزكائب والمقاطف ثم يفرغونها تلالاً واكواماً عليها خيوط العناكب وبينها الاتربة ويتخللها الجلود البالية وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع الا ما لا يكاد يذكر وجلس بجانبها اولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها واعضاء المجلس والامين يراقبون عملهم ويرشدونهم الى الطريق الاقوم فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدشوت والاوراق المتفرقة كتباً معتبرة في كل الفنون وكان معهم مندوب من ديوان الاوقاف وموظف آخر نيط بهِ تقويم كل كتاب وجد او جمع بالثمن اللائق بهِ وقيدت في دفاتر باعداد متسلسلة واستلمها الامين باثمانها المقدرة لها ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعاً

مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا ازماناً طوالاً كانت كلها اتعاباً ومشاق . واني لاعرف كتباً كثيرة مما تجدهُ الآن كاملاً كان الكتاب انواحد منها بعضهُ في خزانة فلان وبعضهُ الآخر في خزانة فلان وباقيهِ في خزانة فلان ولم تجتمع اجزاؤهُ بعضها على بعض الاَّ بطريق المصادفة الحسنة واعرف كذلك ان بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يعبأ بهِ احد ممن تولوا تغييرها للطلاب ولم يعنَ بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين اوراقهِ الاَّ بعد ان كان صدر امر احد مشايخ الجامع باحراقهِ وتدارك الامر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليهِ . وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الاتربة مع انها من اجود المصاحف خطاً وورقاً وفيها من الفرائد وعلوم التجويد ما لا يوجد في سواها وغير ذلك كثير فنكتفي بما ذكرناهُ فما الغرض الاَّ بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر ما يكفي لذلك

بعد ان عرف ان في الازهر دار كتب اقبل عليها اهل البر فاعانوها بهدايا من الكتب النفيسة واهم هدية قدمت اليها هي هدية كتب المرحوم سليمان باشا اباظه فان ورثتهُ حياهم الله لتفقههم ببعض اعضاء المجلس سمعوا قولهُ وقبلوا اشارتهُ وقدموا كتب ابيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين ان تجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لان الباشا رحمهُ الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبهِ شيء كثير فكان ورثتهُ قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كلهِ تكونت مكتبة جميلة منتظمة لا ينقصها الآن سوى الفهرس العام والعمل فيهِ سائر سيراً حسناً وان كان بطيئاً ولعلهُ يتم فيما بعد ان شاء الله تعالى

ولم يكتفِ المجلس بهذا القدر بل رجع الى الاروقة الشهيرة في الازهر وهي اروقة الترك والشوام والصعايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة امين المكتبة الازهرية وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ اخرى لترتيب كتبها وتنسيقها فاجيب الطلب وتعينت العمال ورتبوا الكتب في تلك الاروقة على الطريقة التي رتبت عليها المكتبة ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقتهِ بالاروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الامين ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها

ولقد تفضل الجناب العالي بزيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة الاَّ واظهر سرورهُ مما رآهُ فيها من حسن الوضع والنظام وهي الآن مطرح انظار السائحين ومحط رحال المطالعين ومكان النفع العام للعلماء والطالبين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنيها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنيه في كل عام فاصبح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلود واشتريت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سعته فاضطر المجلس الى اخذ مكان آخر من الازهر اصلحهُ ديوان الاوقاف وعمل فيهِ ما عمل في الاول وامتلأت خزائنهُ ايضاً بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شراؤهُ كل يوم

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بمأمن من الضياع والتلف الاَّ بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار العتيقة ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس . واني اعرف كثيراً من اهل الفضل والدين آرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من اولئك الباعة الادنياء الى مكتبة الازهر لعلمهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المشتغلين اما بعض اهل الشهرة من كبار العلماء وصالحيهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنابيل والغرائر لا يعرف لكتاب منها اول ولا آخر

وما جاء فيهِ عن اصلاح التعليم

وفي اول السنة الدراسية من سنة ١٣١٤ الداخلة في سنة ١٣١٥ شرع مجلس ادارة الازهر في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها اساس ترقي التعليم وهي القاضية على الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى من سني التعليم فحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليهِ موضوعات العلوم فاصدر قراراً في ٦ شوال سنة ١٣١٤ بان الكتب التي تقرأ في السنين الاربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل وفي فقه الحنفية من مراقي الفلاح الى العيني وفي فقه المالكية من ابن تركي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجميع وحتم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانهُ اضر الشروح بالطلبة المبتدئين ثم الزم الاساتذة بان يبدأوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الاربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وان يختتموا دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة ان تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في ايام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس اثناء تلك السنة الدراسية ان بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد

تعودوا ان يطيلوا مدة البطالة الرسمية فاصدر قراراً في آخرها ليكون عليهِ العمل من اول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنة ١٣١٦) ابان فيهِ مدد المسامحات القانونية وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتجَّ طالب ولا يتأول عامل وحتم على كل استاذ وكل طالب ان لا يخلي من ايام العمل القانوني يوماً واحداً من القاء الدروس او تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيهِ شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتبت بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيهِ

وكذلك لاحظ المجلس في اثناء القاء الدروس في تلك السنة الدراسية ان في الازهر عادة مستحكمة وهي اهمال الاستاذ للطالب في آدابهِ وفي مواظبتهِ على الحضور في الدروس واهمال الطالب لانهُ لم يتعود من مشايخهِ المراقبة عليهِ فاهمل في احترامهِ لهم وتباطأ في اعمالهِ ولم يبالِ بحقوق اخوانهِ الطلبة ففسدت اخلاق الطلاب وضاعت آدابهم الدينية وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم فاصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ١٣١٤ ليكون دواء لتلك الادواء بيَّن فيهِ ما على الطالب من الحقوق وما على الاستاذ من الواجبات فحتم على الطالب ان لا يتلقى اقل من ثلاثة دروس في اليوم وان لا يشتغل اثناء الدرس بغيرهِ ولا يكلم فيهِ غير استاذهِ وان لا يسأل الطالب استاذهُ في الدرس اكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد فان بقيت لديهِ شبهة كلهُ فيها بعد الفراغ من الدرس . وان تكون سيرتهُ الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين وان يحترم استاذهُ في الدرس فلا يرفع صوتهُ عليهِ ولا يجلس بين يديهِ بهيئة تنافي الآداب وان يعامل جليسهُ في الدرس بالحسنى فلا يؤذيهُ بالقول ولا بالفعل وان يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتدأ فيهِ على الاستاذ الذي شرع في تلقيهِ عنهُ حتى يتمهُ فاذا بدا لهُ الانتقال الى شيخ غيرهِ وجب عليهِ ان يخبر شيخ جهتهِ المنتسب هو اليها . واذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليهِ اكمالهُ فلا ينتقل الى كتاب ارقى منهُ قبل ان يتمهُ وكل هذه الآداب التي قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها وضررها بالتعلم والاخلاق لا مرية فيهِ

واما الاستاذ فقد حتم عليهِ في ذلك القرار ان يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية وان يتعهد الطلبة الذين يحضرون دروسهُ بنفسهِ ان كان مبصراً او بمن يستنيبهُ ان كان ضريراً ليعرف من يتغيب منهم عن الدرس فيخبر عنهُ شيخ جهتهِ المنتسب هو اليها ليخبر شيخ الجامع بانقطاعهِ عن الدروس وان يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لا يأتي احدهم بما نهي عنهُ فاذا خالف نبههُ الشيخ اول مرة فاذا عاد زجرهُ فاذا عاد ابعدهُ

عن الدرس واخبر شيخ جيتهِ ليخبر شيخ الجامع ليعاقبهُ بما يراهُ . وان يجتنب الاستاذ حتماً تلك العادة القبيحة عادة سب الطلبة وشتمهم الشتم القبيح بسبب الآباء والامهات وضربهم بالعصي والنعال وان يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من اقرب الوجوه متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاسيف . وان يحضر الاستاذ درسهُ قبل إلقائهِ فيراجع ما يحتاج لمراجعتهِ من الكتب لتصحيح الفاظ السطر التي تذكر في الشواهد حتى لا يضيع وقتهُ في التفاهم مع الطلاب وان كان ذلك لا يمنعهُ من قبول رأي التلميذ ان كان صواباً وان لا يأتي الاستاذ للطالبين في اثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم فلا يغرب بالاكثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضيعة للاوقات وان لا يخلط مسائل علم بمسائل علم آخر الاَّ مسألة جاءت عرضاً وتوقف عليها فهم المقام فيتكلم عنها الاستاذ بعبارة قصيرة على قدر ما تدعو اليهِ الضرورة في الافهام . وجعلت مدة الدرس بحيث لا تنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين

وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها وكان همُّ معظم المشايخ الكبار هو التشدق بالاحتمالات البعيدة وتضييع الاذهان تفتيها كما يزعمون ولا يبالون أفهم الطالب ام اشكل عليهِ الامر اصحت القاعدة ام ضاعت هباء . أعرف شيخاً من كبار المالكية قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درساً في علم المنطق ايام المسامحات من كتاب الخبيصي ويحضر درسهُ هذا كل الباقين من المجاورين في الازهر تقريباً . وعرض في درسهِ ان حاشيتهُ اعترضت على الشرح فاخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتحللات والاحتمالات النحوية حتى استقرَّ رأيهُ على تصحيح كلام الشرح فقال لهُ بعض الطلبة وانا اعرفهُ ايضاً " يا مولانا انهُ يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد ان تكون الكلية تنعكس جزئية مثلاً يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون " فاجابهُ الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب واندفع الاعتراض فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب : واعرف شيخاً آخر من كبار الشافعية قرأ في درسهِ لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور (كادت نفوس القوم عند الغلصمة) بالفاء بدل الغين فقال لهُ احد الطلاب وانا اعرفهُ ايضاً انها الغلصمة بالغين لا بالفاء فسبهُ وشتمهُ واهانهُ كثيراً واصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظهُ المجلس ووضع لهُ ذلك القرار تخفيفاً لتلك الاضرار ومراعاة لمصلحة المعلمين والمتعلمين بما يقضي بهِ الشرع الشريف ويطالبنا بهِ الدين القويم . انتهى

وما دام رؤساء الامة وقادة الافكار قد انتبهوا للازهر واهتموا باصلاحه فلا تتعذر عليهم طرق الاصلاح فيُجنى منهُ النفع الذي يجب ان يجنى من مدرسة كبيرة تضمُّ الوفًا من الطلَّاب

تاريخ دول العرب والاسلام

لعجبنا من نفر من الادباء انهم يقضون ساعات الفراغ من اعمالهم المختلفة في تأليف كتاب او ترجمة رواية او كتابة مقالة كأنهم يحسبون الوقت كنزًا اثمن من ان يضاع باللهو والجلوس في القهاوي. ومن هذا النفر حضرة محمد بك طلعت حرب مدير قلم القضايا في الدائرة السنية فانهُ الَّف كتابًا نفيسًا في تاريخ دول العرب والاسلام طبعهُ اول مرةً فراج ونفدت نسخهُ وطبعهُ الآن طبعةً ثانية بعد ان نقحهُ وزاد عليهِ زيادات كثيرة مفيدة . وقد صدر الجزء الاول منهُ الآن وهو يشدي بكلام تمهيدي في جغرافية بلاد العرب واشهر من ساح فيها من الافرنج وعلى ذلك حواشٍ مصدرها الجرائد الفرنسويَّة. ولو صبر المؤلف الى الآن وطالع ما تقولهُ الجرائد الفرنسويَّة لرأى ان منهاجها قد تغيَّر كثيرًا لان اكثر كتَّاب الصحف الاوربية لا يهمهم الَّا مصالح قومهم فيدورون مع الاهواء كشراع السفينة . وقد ذكر في هذا التمهيد الاقوال المتباينة في مساحة بلاد العرب وعدد سكانها وقال "ان سبب هذا الاختلاف ليس بالامر الغريب لتعلقهِ ببلاد قلَّما دخلها اوربي او عالم اجنبي لشدَّة حرارتها ووعورة مسالكها وجهل لغات اهلها وعوائدهم وتمكنهم بدينهم وشدة ابائهم دخول الاجنبي بلادهم". اما من حيث شدة الحرارة ووعورة المسالك وجهل اللغات والعوائد فهذه كلها لا تمنع رواد افريقية من ان يرودوا بلاد العرب لاسيما وان داخلها جبال واودية وسهول ونجود من اجمل واخصب ما خلق الله ولو كانت في ايدي اناس غير اهلها لكانت جنة الله في ارضهِ . واما اباء اهلها فممدوح ولكن يجب ان يقترن بعمل ما يغني عن الاجانب وهنا محل النظر والعبرة

ويلي ذلك كلام مسهب عن السياح الاوربيين الذين دخلوا بلاد العرب من عهد نيبهر سنة ١٧٦٣ الى الآن وعن احوال البلاد السياسية في الزمن الحاضر وبذلك ختم المؤلف التمهيد وشرع في فصول الكتاب فتكلم على العرب قبل الاسلام جاريًا مجرى مؤرخيهم وذكر من اخلاقهم واطوارهم ما يستحسن وما يستقبح وبين تأثير ذلك في احوالهم الاجتماعية اي ان حال البدو الآن وتأخرهم عن جميع الامم المتاخمة لهم ناتجان عن احوالهم الاجتماعية فلو كانت احوالهم صالحة مثل احوال اهالي سويسرا مثلاً او مثل احوال اهالي فرنسا لوجب ان يكونوا

مرتقين مثل اهالي سريسرا واهالي فرنسا والاَّ فضيلتهم دون ضيلة اولئك وهذا لا يسلم به حضرة المؤلف ولا نسلم به نحن . فما في الاحوال الاجتماعية التي ابعدت النجاح عن امة فيها "كثير من الصفات التي تبرهن على ميلها للسعادة والارتقاء الى درجة عظيمة ومن تلك الصفات التي امتازت بها عن سائر الامم علو الهمة وشرف النفس وحفظ حرمة الجوار والمحاماة عن المظلوم والوفاء بالوعد وصدق العهد والجرأة والاقدام وحب عظائم الامور والكرم والجود"

وقد ابان المؤلف بعيْد ذلك" انهُ لم يكن في العرب طبيعة الانتظام فان ارواحهم الوطنية منبت من فطرتهم بسوس قبيح ابقاها مأكلاً للشقاق ومرتعاً للانقسام ... فكان دأبهم التقاطع وغزو بعضهم بعضاً قبل تألفهم والانقسام والخروج عن طاعة الدولة الحاكمة بعدهُ فدلوا بذلك على انهم لا يحسنون سياسة الملك وان احسنوا تاسيسهُ ومن الاسف ان قد سرى هذا الداء في جميع دول الاسلام بعد ذلك فنخر عظام المسلمين حتى تداعت كل الاعضاء او كادت"

والكلام في هذا الفصل والفصول التالية بعضهُ منقول عن كتب العرب وبعضهُ عن كتب الافرنج الذين ساحوا في بلاد العرب او كتبوا عنهم وبعضهُ تطبيق واستنتاج من المؤلف . والبحث في اكثر المواضيع موجز جدًّا فالبحث في خرافات العرب ومعتقداتهم ملأ صفحتين وبعض صفحة مع ان الذي كتب في هذا الموضوع في المقتطف ملأ بهِ اكثر من عشرين صفحة . والكتاب كلهُ كما قال فيهِ حضرة القاضي الفاضل حفني بك ناصف جمع في اوراق كثيرة ما تفرَّق في اسفار جليلة واقتصر على اللباب وانتصر للصواب

والفصل الثاني من الكتاب في العرب البائدة كقوم عاد وثمود وطسم وجديس وهذا البحث يقتضي تمحيصاً كثيراً . والثالث في العرب المستعربة وهذا ايضاً يقتضي البحث الدقيق لان الشك اول مراتب اليقين وكل ما قيل في كتب الاقدمين عن عاد وثمود وقحطان وعدنان وابرهيم واسمعيل امسى الآن في معرض الشك عند العلماء المحققين وكذا القول عن العرب المستعربة في الفصل الرابع

اما الكلام على العرب بعد الاسلام فلهُ باب آخر في فصلين الاول في تاريخ النبي من حين اظهر دعوتهُ الى حين وفاتهِ والثاني في الاسلام وانتشارهِ بسرعة

وقد طبع الكتاب على ورق جيد بقطع صغير وهذا هو الجزء الاول وسيليهِ ثلاثة اجزاء الاول ينتهي بسقوط بغداد والثاني في الدول التي انشقت من بني عباس ودول الاسلام في الاندلس والثالث في تاريخ الدولة العثمانية فعسى ان يوفق الى اتمامها على ما يريد خدمة للقراء